المرأة فى ميادين الحياة

لحضرة صاحب المعالى سابا حبشى بك

وزير التجارة والصناعة

قديما تحدث الحكماء وترنم الشعراء بفضائل المرأة الصالحة وما يشع حولها من ضياء يحيطها بهالة من النور ، فقالوا إن " سراجها لا ينطفئ ، وأنها كسفن التاجر تجلب رزقها من بعيد ، فالعز والبهاء لباسها وهى تضحك على الزمن الآتى" .

لقد مضت آلاف السنين على هذه العبارات الحكيمة ، التى كثيرا ما تردّدت على ألسنة الخطباء وأقلام الكتّاب ، ولكن جدتها لم تخلق لأنها تعبر عن حقيقة ثابتة على الأيام .

ولست أريد أن أروى حديثا معادا مهما كان شائقا عن المرأة فى بيتها وما لها من سلطان فى هذه الدنيا الصغيرة ، فالمنازل حرمة يرتد عنها الطرف حسيرا ، ولا يصل أرق ما فى الخيال والشعر إلى وصف روعة ما تنطوى عليه من المعانى الجليلة . على أن هذه الدنيا الصغيرة التى تحكمها المرأة ينبعث منها نفوذ قوى يوجه المجتمع من حيث لايدرى . ولقد تساءل المفكرون فى جميع العصور عن تقسيم العمل بين الرجل والمرأة ، فذهب بعضهم إلى أن الأمر شركة لا فارق فيها بينهما ، فما يصح أن يقوم به الرجل يصلح لأن تقوم به المرأة على السواء .

ومنهم من رأى أن الأمر قسمة بينهما ، وأن كلا منهما ميسر لما خلق له ، وقد قال رابندرانات تاغور الشاعر العظيم صاحب كتاب " البيت والدنيا " إن لكل من الرجل والمرأة محيطا خاصا : فمحيط الرجل يمتد فى معنى السعة ، ومحيط المرأة يمتد فى معنى العمق . فمكان المرأة الأول فى البيت وما يتصل به ، بينما مكان نشاط الرجل فى الكون الذى خلق له .

وليس من مؤدى هذا أن قدر المرأة يقل عن قدر الرجل ، وإنما لكل شأنه فيما اختص به ، ولا محل للمفاضلة أو المقارنة مع وجود الفارق ، فكما أن الفضاء لا نهائى ، فكذلك العمق لا حدّ له .

وقد وصلت المرأة إلى مساواة الرجل فى الحقوق المدنية والسياسية فى كثير من البلاد ، ولكن التقسيم الطبيعى للعمل بينهما حال دون أن تكون مساهمة المرأة الفعلية فى مسئوليات الرجل فى الحياة العامة بنصيب متساو ومتكافئ ، فالمجالس النيابية لايزال الرجحان فيها للرجال ،

وفى الوزارة البريطانية الحالية التى ألفها المستر تشرشل أخيرا وقع الاختيار على سيدة واحدة لتتولى شؤون وكالة وزارة الصحة العمومية بين عشرات الرجال، ووصل كثير من السيدات إلى درجة رفيعة فى العلم والفن والأدب، فالعالم مدين بكشف معدن الراديوم وماله من فوائد جليلة فى علاج أخبث الأمراض لسيدة فاضلة هى مدام كورى .

وقد أنشئت فى سنة ١٩٣٦ وكالة وزارة للبحث العلمى فى فرنسا ولیت مناليدها مدام جوليا كورى التى تحمل اسم والدتها العظيمة والتى منحت جائزة نوبل لتفوقها فى العلوم الطبيعية .

وفى الأدب امتازت سيدات كثيرات فى جميع البلاد وفى مختلف العصور، فكان لهن شأن عظيم فى الشعر والنثر . ولسنا نحتاج لأن نذهب بعيدا لنجد الأمثلة التى تثبت هذا . ففى آداب اللغة العربية حكت مراثى تماضر لأخيها صخر بأنها أشعر من حسان بن ثابت ، كما نجد بين الشعراء والكتاب المحدثين عائشة التيمورية وباحثة البادية، وفى الفن نجد للسيدات آثارا باهرة كصورة " الرسامة وابنتها " لمدام فيجى لبران وهى فى مجموعة اللوفر بباريس .

وإذا كان للمرأة فضل لا ينكر فى نواحى النشاط العلمى والفنى والفكرى التى استعرضناها، فإن ماساهمت به فيها من جهود كان محدودا بطبيعة تقسيم العمل بينها وبين الرجل . على أن هناك ميدانا للنشاط الإنسانى للمرأة فيه فضل السبق والتفوق، وهو ميدان الخدمة الاجتماعية. ذلك لأنها أقرب إلى دائرة اختصاص المرأة منها إلى دائرة اختصاص الرجل، فما الخدمة الاجتماعية إلا امتداد العطف والحنان والشفقة من دائرة البيت التى تقع تحت سلطان المرأة إلى دائرة أوسع وهى دائرة المجتمع .

لهذا اقترن وصف سليمان الحكيم للمرأة الصالحة بذكر فضلها خارج البيت بعد بيان أثرها البالغ داخله ، فهو ينعتها بأنها " تبسط يديها إلى المسكين وفى لسانها سنة المعروف " ذلك أن الطبيعة اختصتها برقة الشعور ودقة الاحساس ، ولهذا لا غرابة فى أن تصل المرأة فى هذا الميدان إلى مصاف البطولة الحقة .

وقد سبقنى كثيرون إلى ذكر أمثلة من سجل التاريخ لهذه البطولة التى بلغت فى بعض الأحوال حد الاستشهاد فى سبيل الواجب الانسانى . وأود أن أضيف إلى هذه الامثلة ما كان للمرأة أحيانا من أثر فى تغيير مجرى التاريخ لإصلاح عيوب اجتماعية صارخة .

فقد كان من أهم الجهود التى لاقت نجاحا وتوفيقا فى إزالة وصمة من جبين الانسانية مابذل فى سبيل إلغاء النخاسة وتحرير الرقيق . ولم يكن هذا الغرض النبيل سهل المنال، وانما أريقت على جوانبه دماء كثيرة فى حرب طويلة بالولايات المتحدة بين الشمال والجنوب انتهت بإعلاء كلمة الحق وكسر أغلال العبيد .

وتقترن حرب التحرير هذه باسم الرئيس العظيم ابراهام لينكلن. ولكن اذا تساءلنا الى من يرجع الفضل فى إيقاظ الضمير العام وتنبيه الشعور الإنسانى الذى هب يطالب بالقضاء على هذا الظلم، لكان الجواب أنه من حرك الملايين لتنتصر لهذه القضية العادلة سيدة. ولعل القراء يذكرون اسم هذه السيدة فهى مسز بيتشرستو التى وصفت فى كتاب "كوخ العم توم" ما كان يلاقيه أولئك البؤساء من ظلم ومعاملة قاسية ، فقد وزع من هذا الكتاب ما لا يقل عن المليون ونصف المليون من النسخ، وترجم الى ما لا يقل عن ثلاث وعشرين لغة، ولم تهب السيدة قلبها وجنانها وقلمها لهذا العمل الانسانى النبيل فحسب ، بل وهبت ابنها الكابتن فردريك بيتشرستو الذى أصيب فى الحرب بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية ، فاذا ذكر اسم ويلبرفورس واللورد بروجهام مقترنين بهذا المجهود الانسانى النبيل فان اسم السيدة بيتشرستو تحيط به هالة من المجد لن تنتقص يد الزمن من بهائها .

وأود أن أوجه القول بصفة خاصة الى آنساتنا وسيداتنا العزيزات لأقول لهن إن ما استطاعت امرأة أن تعمله تستطيع امرأة أخرى أن تقوم به. وفى ميدان الخدمة والواجب متسع للجميع .

لقد ذكرت معركة اجتماعية كللت بالنصر ، هى إلغاء الرق ، وأسمح لنفسى أن أذكر معركة اجتماعية أخرى لا تزال ناشبة لتحرير نوع آخر من الرقيق وإعادة الكرامة والأمن كاملين الى الطفل والمرأة :

فى عصبة الأمم مؤسسة لحماية الأطفال والنساء لها فروع فى كثير من البلاد ، وليس غريبا أن يكون معظم القائمين بهذه الحركة النبيلة من السيدات .

ولعل الكثيرين من القراء يذكرون الآنسة هيجسون وما كان لمرورها بهذه البلاد من أثر عظيم سيكون له ما بعده فى محاربة الفساد .

على أننى قبل أن أذكر لهؤلاء الآنسات والسيدات معركة قريبة من أبوابهن، هى محاربة الفقر والمرض والرذيلة فى بلادنا العزيزة ، أود أن أختار لهن بعض الأمثلة عن رسالة المرأة فى جميع أقطار الأرض كذلك رحيم يعالج ما فى المجتمع من البلايا .

كنت أطالع منذ أيام مقالا للكاتبة الأمريكية دوروثى كانفيلد عن إيواء الأطفال اللاجئين الذين أصبحوا محرومين من بيت يأويهم أو عائل يدبر شأنهم بسبب الحوادث الجسام التى يجتازها العالم الآن . وقد كانت تلك السيدة فى أثناء الحرب الماضية فى فرنسا فوقفت جهودها على إيجاد بيت للأطفال الذين فقدوا آباءهم فى ميادين القتال وأصبحوا تحت رحمة الأقدار فى هذه الدنيا المضطربة ، وهى اليوم تقوم بنفس المهمة وتسخر لها قلمها

ومواردها . هـذه رحمة مستمدة من رحمة الله ، وقد أمرنا بها أمرا صريحا فى الكتب السماوية جميعا ، وليس أبلغ من القول الكريم " ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى ؟ فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث " .

وسيقال للأبرار يوم القيامة "رثوا الملكوت المعد لكم، لأنى كنت غريبا فآويتمونى" فيسألون الله عز وجل " يارب متى رأيناك غريبا فآويناك ؟ " فيجيب ويقول لهم "بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتى هؤلاء الأصاغر فى فعلتم" .

فى العام الماضى وقع حادث عظيم ، هو اعتراف السلطات العامة فى مصر لأول مرة بواجب الخدمة الاجتماعية بين الطبقات المعوزة وإنشاء وزارة للشؤون الاجتماعية . على أن هـذه الخطوة الموفقة قد تقدمتها جهود الكثيرين من محبى الخير فى بلادنا العزيزة لدراسة مشكلاتنا الاجتماعية ومعالجتها ، وقد كان حظ المرأة منذ أول الأمر فى هذه الحركة المباركة وفيرا . فعقد الاجتماع الأول لإنشاء مدرسة الخدمة الاجتماعية فى منزل سيدة ، وكان معظم المتبرعين لهذا المشروع الخيرى الجليل من السيدات ، وتولت عمادة مدرسة الخدمة الاجتماعية سيدة .

وتضم جماعة الخدمة الاجتماعية سيدات فضليات لسن أقل تحمسا لما أخذنه على عاتقهن من الرجال .

وتتشرف هـذه الجماعة الآن برياسة حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء الفعلية ، كما تتشرف بعضوية ثلاثة من الوزراء منهم صاحبا المعالى وزير المعارف العمومية ووزير الشؤون الاجتماعية ، وقد نظرت أخيرا فى مشروع العناية بأمر الأحداث الذين يقدمون للمحاكمة وعهدت بتنفيذ اصلاح اعوجاجهم إلى هيئة على رأسها سيدة .

وقد لايذكر الكثيرون أن فكرة إنشاء محاكم خاصة للأحداث — وهى الفكرة التى أخذت بها جميع البلاد الراقية — يدين العالم بها إلى سيدة هى لويزدى كوفن بشيكاغو حيث أنشئت أول محكمة للأحداث ، وقد أنفقت هـذه السيدة ثروة تقدر بالملايين فى سبيل الخدمة الاجتماعية وجمعت من طريق السؤال ثروات طائلة صرفت فى سبيل الخير لتخفيف ويلات الإنسانية .

والسيدة الآن فى الثمانين من عمرها . وقد لقبت بأكبر سائلة ، ورشحت فى وقت من الأوقات لوظيفة عمدة مدينة شيكاغو لفرط ماتدين لها به مدينتها من أعمال البر والإحسان .

وأخيرا أود أن أتحدث عن آنسة من خريجات كلية البنات الأمريكية ، فلقد قبلت أن تعيش فى قرية صغيرة لتعمل فى مركز من مراكز الخدمة الاجتماعية بين نساء القرية حيث ترشدهن إلى العناية بأطفالهن وقد حرمت نفسها مما فى المدن الكبيرة من إغراء .

ولكنها كسبت أجرا عوضها خيرا مما فقدت وهو عرفان الأمهات فى تلك القرية بجميلها. فقد أصبحن يدعونها ملكا كريما و يتيمّن باسمها فيستعرنه لجميع بنات القرية .

بقيت لى كلمة أوجه فيها الخطاب إلى الآنسات اللائى تتكون منهن طاقة أزهار تقدمها معاهد تعليم الفتيات فى كل عام لبلادنا العزيزة " لا تظنن أيتها الآنسات العزيزات أنكن أتممتن دراستكن، فالحياة كلها دروس وعبر ، على أنكن حصلتن علما نافعا غذتكن به هذه المعاهد التى نفخرن بحق بانتسابكن اليها وليس العلم بشىء مالم يقترن بالعمل ، فمن عمل بما تعلم كان عظيما فى الدنيا والآخرة . إن بيوتكن و بلادكن تتطلع اليكن ، وتنتظر منكن أن يكون شعارکن : الواجب نحو الله والملك والوطن".

سابا حبشى

من درر الامام على

— ما المبتلى الذى اشتد به الداء بأحوج الى الدواء من المعافى الذى لا يأمن البلاء .

— المسكين رسول الله الى الغنى ليمتحنه ، فان اعطاه فقد أعطى الله وان منعه فقد منع الله .

— مازنى غيور قط .

— مودة الآباء قرابة بين الأبناء . والقرابة الى المودة أحوج من المودة الى القرابة .

— ما لقيت أحمق الا أعانى على نفسه .

— الجاهل الذى يطلب العلم شبيه بالعالم ، والعالم المتعسف شبيه بالجاهل المتعنت .

— اتقوا معاصى الله فى الخلوات فان الشاهد هو الحاكم .

— ان الله فرض فى أموال الأغنياء أقوات الفقراء . فما جاع فقير الا بما منع به غنى . والله تعالى سائلهم عن ذلك .